الغابرة والأوقات الحاضرة وكذلك اكثر حكومات الغربيين فى الدهور الماضية ومنها ايضاً الحكومة الانكليزية الآن فى البلاد الهندية

(لها بقية)

(المنار) ظفرنا بهذه المقالة فى صحيفة عاث فيها العثُّ (الأرضة) فذهب بكلمات قليلة منها لم تخلّ بالمعنى وان نقصت بعض الفائدة فمنها ما تركنا له بياضاً ليكتب فيه الساقط من يظفر به من القرآء ومنها ما وضعنا له كلمة يدل عليها المعنى ككلمة (صِرّة) قبل لفظ الشتآء

باب التربية والتعليم

﴿ الباب الثانى (الولد) من كتاب اميل القرن التاسع عشر ﴾

من اراسم الى هيلانة فى ١١ يونيه سنة — ١٨٥

قد قطع مكتوبك ولله الحمد جميع العقبات التى كانت تحول بينه وبين الوصول الىّ وهو الآن بين يدىّ ارى فيه شعاعاً من شمس الحرية . قد اتصل بى وها أنا ذا ألاحظك بفكرى فى تنزهك على شاطئ البحر وابصر «اميل» من خلال ما تبديه من ضروب التأثر والانفعال واخالنى اعرفه .

وياه كيف اكون والداً من سنتين كاملتين ولا اتمكن من تقبيل ولدي الى الآن :

أترك هذا الاسف الذى لا جدوى له واعاود الحديث معك فيما ينبغي ان يكون اهم ما يعنينا فى هذه الدنيا فاقول : ان من اغلاط المشتغلين

بالتربية صرفهم جل عنايتهم فى تقويم القوى والملكات العقلية وقلة التفاتهم الى غيرها مع انه لا يسعهم انكار ما بينها وبين قوى الادراك الحسية والنفسية من الارتباط ولكنى فى هذا المكتوب احب أن أوجه فكرك الى تربية الادراك العقلى بنوع خاص .

كأنى بك تقولين هل يتفكر الطفل ؟ فأجيبك ان ذلك لازم له لانه حيّ ولأن العلم اذا كان كلما نفذ فى اسرار حياة النباتات والحيوانات كشف لنا فيها بداية احساس بل ربما صح ان يقال بداية ادراك فكيف يكون الطفل حينئذ اقل حظاً من هذه الكائنات التى هى اضعف خلق الله تعالى ؟ نعم انى لا انكر ان مخه فى الاسابيع الاولى من ولادته يكون فى نظرنا كالبيداء المظلمة التى وصفها الشاعر اللاتينيّ بأنها مملكة العفاريت ولكنه يتدرج فى تمييز بعض الاشياء بعضها من بعض والقياس بينها وانتزاع بعض الاحكام عليها وانك لا تكادين تجدين طفلاً فى الشهر الخامس عشر او السادس عشر من عمره اذا رأى صورة انسان الا وهو يفتكر بانها لشخص معروف .

من الاسباب التى تعين على إنماء عقل الطفل بعد تربيته بما يحتف به من الاشياء تعليمه اللسان .

وانى ارجح ما تقولينه من ان الانسان فى عهد طفوليته كان يتلمس مواد الكلام الاولى فى اصوات الكون المحيط به وقد يدلنا على ان هذه الاصوات هى اصل اللغات الانسانية ما نجده فى جميعها خصوصاً ما كان منها قديماً جداً من آثار التوافق الناشئ عن التقليد وما اجلّ واعظم كلام الانسان فمن العبث أن ارضي نفسى بقولى : ان اسلافنا الغابرين قد جمعوا

فى بداية نشأتهم الاصوات المبهمة المنتشرة فى جميع ارجاء الكون وصيروها لغة فان هذا القول لا يكشف لى جميع ما فى كلام الانسان من المعانى لانك تجد بين لكل شىء فى هذا العالم كلاماً فالمعدن يتكلم لانه اذا نُقر صوّت تصويتاً يخبر بماهيته نحاساً كان او ذهباً والحيوان يتكلم لانه يدل فى كل حين بما يبديه فى صوته من الكيفيات المختلفة على حاجاته ووجداناته وشهواته والهواء والبحر والرعد تتكلم لان ألفاظها تنبئ عما يقع بين الفواعل الكونية من الكفاح والمغالبة ولكن شتان بين كلام هذه المخلوقات جميعها وكلام الانسان ولو كان طفلاً فان الطفل متى قدر على النطق ببعض الكلمات ولو مع التلعثم فيها واستطاع مثلاً ان يقول «أنا» مثبتاً بذلك استقلال الانسان وقيام الحياة العامة به رأيت ان جميع ما فى الكون أمامه قد دخل فى شبه عبودية وخضوع .

ان اصوات المادة معلولة للحوادث التى توجدها واصوات الحيوانات ناشئة عن الغرائز المستقرة فى انواعها وأما لفظ الانسان فهو حتى فى حال تمتمة الطفولية دال على ذات شأنها الحرية والاستقلال .

على انه لا ينبغي ان نعمى عن الفائدة الحقيقية من اساليب الكلام من حيث كونه ركناً من اركان تربية الادراك . ذلك لان الطفل لا يتلقى عنا وقت الكلام معه الا اصواتاً فمن اجل ان يكون تعليمنا مفيداً له يجب ان تكون هذه الاصوات التى يسمعها مقرونة فى نفسه بمدلولاتها :

انت تذكرين تلك الفتاة التى جاءت بها الىّ والدتها فى يوم من الايام تستفتينى فى امرها فقد كانت شبيهة بتلك المغارات المقفرة ترد جميع الاصوات غير فاهمة شيئاً منها وكنت اعتقد انها لجمالها الرائع لو كانت

شهدت قدماء اليونان لاتخذوها إلهة لصدى الاصوات لانها لفرط ما أوتيته من قوة السمع الميؤس من تعديلها وغريزة التقليد المتعاصية على الترويض كانت على الدوام ترجع ما كنت أوجهه اليها من الأسئلة بدون ان تجيب عن شيء منها وقد عالجتها بجميع طرق العلاج النفسية فلم يفدها ذلك شيئاً .

فأنا اخشى كثيراً ان لا يوجد بين هذه البلهآء المسكينة التي لا تفهم شيئاً مما ترددده من الكلام وبين كثير من الاطفال الذين يرددونه على قلة فهمهم اياه او على فهمه مقلوباً الا فرق خفيف

على انى ارى ان الميل الى التكلم بغير فائدة مرض من امراض العقل عند الانسان فكم من النساء من يجتهدن فى امانة مايجدنه من الضجر والسآمة بأغانيّ ليس فيها شيء من المعانى المعيّنة ولقد عرفت مسجوناً كان على قصور ادراكه جداً كلما وضع فى السجن المظلم عقاباً له على ما كان يرتكبه من الذنوب يجتهد فى مخادعة العزلة والظلام باحاديث خالية من المعانى .

وانه يوجد فى الشعائر الدينية القديمة لكثير من الامم صيغ من العزائم والتعاويذ هى عبارة عن كلمات او جمل مرتبة تلتذ بسماعها الاذن ولكن لو أراد سامعها البحث عن معانيها لكان محاولاً عبثاً . وما لنا وللرجوع الى تلك الازمان الغابرة نستشهد بما كان فيها على مانقول وأمامنا كنائسنا الكاثوليكية نسمع المؤمنين يدعون الله فيها بأدعية لاتينية لا يفهم معانيها الا النزر القليل منهم .

ولكن ارى ان عدم صرف اللسان عن هذه الوجهة الفاسدة واعانته

على الجري فى مضمارها من الامور الشديدة الخطر على العقل فاذا لم يحترس منها اصبحت الالفاظ خلواً من معانيها وصارت عُوذاً للعقل .

الطفل فيه شيء من خاصية البغاء ولا وجه للشكوى من ذلك فانه بهذه القوة التقليدية يتيسر له الاختلاط بمن حوله ومعاشرتهم ولكن حلّ عقدة لسانه ايسر من فتح مغلق عقله فليست الالفاظ تؤدي دائماً الى فهم الاشياء التي وضعت لها واني لأرى فى لغة الخرس مزية لا توجد فى لغتنا معاشر الناطقين ذلك لان الاشارات عندهم هي رسوم للمعاني والوقائع وليس الامر كذلك فى النطق الذي هو عبارة عن اصوات متنوعة واجراس مختلفة كما يعلمه كل منا . ثم اعلمي ان محادثة الاطفال مما لا شك فى فائدته فانها من دواعي ابتهاجهم وانشراح صدورهم ولكن على شرط ان تكون الكلمات وسيلة الى انتقال اذهانهم الى مدلولاتها فيجب عند تلقيهم للدوالّ اللفظية ان ينبهوا الى ما تدل عليه ويفهموا ما بين الدال والمدلول من الارتباط فبهذه الطريقة تعوّد اذهانهم على الاستقرار وعدم التشتت .

لست ادري لما ذا انهم كثيراً بمقاومة ما يجده الاطفال من اللذة فى تقليد اصوات بعض الحيوانات فما اسعد حظ امرئ يكون فيه من المواهب الالهية ما يؤهله لفهم جميع ما يعيش على وجه البسيطة . لا اقصد بقولي هذا ان من يحاول محاكاة اصوات بعض الحيوانات يفهم معنى لسانها ولكني أريد به ان مثل هذا السعي فى التقليد يدل على ان صاحبه قد وصل الى درجة ما من النظر والملاحظة فالطفل الذي يحاول تقليد صوت الكلب او الديك مثلاً قد لاحظ ان فى هذا العالم مخلوقات اخرى

غيره وان لها فى التعبير عما فى انفسها من الوجدانات طريقة خاصة بها .

اللغة الانسانية وان كانت وضعية فأصولها على التحقيق فطرية .

انظرنى الى الاطفال تجدي لهم لغة معروفة فى جميع اقطار الارض وهى وان اختلفت يسيراً من أمة الى اخرى تتألف فى الاصل من اصوات آحادية المقاطع فأصولُ الكلام الملفوظ عند جميع الامم لاتخرج عن حرف ساكن وحرف لين يتكرران بحركة الشفتين مثل « بابا ماما تاتا دادا » وغيرها ما عدا بعض تنويعات خفيفة والطفل يقضى من دور طفوليته زمناً طويلاً لايعرف فيه اداة التعريف ولا الضمير وأما الفعل فلا يدرك منه الا المصدر ولا ينفذ ذهنه الى فهم صيغ الماضى والمضارع والامر وغيرها من المشتقات ولا يعرف من النعوت الا قليلا وأقل منه معرفته بحروف العطف فلغته شبيهة بلغات الاجيال الاولى .

وقد روى لنا احد السياح أنه يوجد فى افريقيا قبيلة يتألف لسانها من اثنتي عشرة كلمة لا غير وقال ان افراد هذه القبيلة على قلة الفاظ لغتهم الى هذا الحد يتفاهمون جيداً فيما بينهم باضافة الاشارات الى الاصوات وكم يوجد من الاطفال من يُفهمون امهاتهم ما يريدونه بما هو اقل من كلمات تلك اللغة مثل تحريك الاعين او الاشارة او ما لا يكاد يكون شيئاً يذكر مع افصاحه عن افكارهم واظهاره لمقاصدهم .

وهنالك امم اخرى تكاد تكون امية ولكنها تبرّز علينا فى علم ربط الوقائع بعضها ببعض وانتزاع الاحكام منها فالعرب القاطنون فيما بين النهرين (الدجلة والفرات) لا يكادون يقرأون شيئاً من الكتب لأنه لا مدرسة لهم سوى الصحراء ولكن من المحقق ان البدوي منهم اذا رأى آثار الخُطا

على الرمل حكم فوراً ان كانت آثار انسان او حيوان وان كان انساناً عرف قبيلته وكونه عدواً او صديقاً وقدر تاريخ مروره سواء كان قديماً او حديثاً واستنتج ماذا عسى ان يكون قصده من سفره وحكم ايضاً ببعض علامات يراها منتشرة في الطريق ان كان البعير حاملاً شيئاً او خالياً شبعان او جائعاً مستجم القوى او مهزولاً وان كان صاحبه من سكان الحضر او البدو . فاذا تأملنا قليلاً في سبب وجود هذه المعرفة عند هؤلاء القوم ظهر لنا ان طريقة البدوي في ربط الوقائع بعضها ببعض وانتزاع الاحكام منها هي بعينها الطريقة المعروفة في العلوم الصحيحة .

من الجلي ان احداً لا يسعه انكار اهمية اللغات وما لها من الفوائد في تربية عقل الانسان ولكن مما ينبغي الاعتراف به ان الالفاظ اذا كانت تغني من النظر في الاشياء وملاحظتها كما هو الشأن فيها غالباً فهي مضرة بالادراك لا مفيدة له فالطفل وان قدر على تسمية الفرس بخمس لغات مختلفة لا يعرف في نهاية الأمر الا حيواناً واحداً فلو اتفق انه لم يره في حياته كان لم يعرف شيئاً .

اراك تذكرين ما اشتهر عند هاملت [1] من تعجبه من تشبث الناس بالألفاظ حين قال : « الفاظ الفاظ الفاظ » فهذا الامير كان درس في المدارس وكأنه بهذا الاستغراب ينتقد طريقتنا في التربية فان المشتغلين بهذه الطريقة يوجبون على الطفل من اجل كمال تربيته ان يحفظ افكار غيره ويرددها مع ان الواجب عليهم ان يسألوه دائماً عن افكاره

(١) (هاملت) امير شبه جزيرة الدنيمارك المسماة جوتلاند تظاهر بالجنون ليأخذ بثار ابيه الذي قتله اخوه

ويبادرونه بالحث على النظر في الوقائع والقياس بينها وتمرين نفسه على الحكم عليها . قد رأيت فيما سبق ان العمل هو اللازم في تربية العواطف الفاضلة وضروب الوجدان الشريفة فكان الواجب على المربين ان يكون مرجعهم هنا ايضاً الى العمل لاحياء جرثومة الادراك في الطفل وتلقيحها لتنتج الثمرات المطلوبة . اهـ .